خامساً . خطاب النبوءة

إن الفكر السياسى فى مصر القديمة لم يخلُ من هـذا النـوع المثالى من الخطاب الذى يحلم أصحابه من الحكماء بدولـة مثاليـة يحكمها حكام فضلاء مثاليون ويسودها روح المحبة والعدالة والنظام.

وقد ارتبط ظهور هذا النوع من الخطاب أيضا بفترات الانتقال التى كان يسودها الاضطراب والقلاقل والثورات الاجتماعية . وقـد ظهر خطاب النبوءة مقترنا بخطاب الشكوى والتمـرد ؛ فـإذا كـان الثانى هو خطاب الشعب إلى السلطة مطالبا إياها بتحقيـق العدالـة والنظام وهو خطاب أميل إلى علم السياسة منه إلى فلسفة السياسـة باعتباره يقوم على توصيف ما هو كائن من أحوال سياسية والتعبـير عن ما فى هذه الأحوال السياسية والاجتماعية من اضطراب ومظـالم وفساد ، فإن الأول هو أيضا صورة من صور خطاب الشعب إلـى السلطة ولكن من يقوم به هذه المرة ليس فردا عاديا كالقروى الفصيح أو غيره ، بل جاء هذا النوع من الخطاب على لسان الحكماء .

ولذلك كان الخطاب هنا أميل إلى فلسفة السياسية ، حيث لـم

يعد مجرد خطاب يجأر بالشكوى ويصف الحال البائسة التى يعيشها الناس ويشرح صور الفساد التى استشرت فى المجتمع ، بل ارتفع من هذه الشكوى وتوصيف الأحوال القائمة إلى المطالبة بصورة أمثل للحكم وللدولة ؛ فالحاكم لابد أن يكون قوياً عادلاً كربماً والدولة لابد أن يسودها الماعت ويستقر بها النظام .

ولاشك أن هذا الخطاب الذى تنبأ فيه بعض حكماء مصر القديمة بما سيكون عليه حال الدولة المصرية فى المستقبل لم يأت من فراغ ، لأن الحكيم الذى تنبأ بصورة الحكم الأمثل والنظام العادل المستقر الذى يقوده ملك قوى عادل إنما بنى توقعاته على ما استقر فى التاريخ المصرى القديم وتغلغل فى وجدانه السياسى من أن الدولة المصرية تكون قوية ومستقرة حينما يعود إليها كل أركان "الماعت"، وأنه إذا كانت الدولة فى هذه الأيام التى يعيشها تمر بفترة من القلق والاضطراب والفوضى السياسية والتسيب الأخلاقى والانهيار الاجتماعى ، فإن حكمة التاريخ المصرى القديم تقول إن هذه الفترة من الاضطراب وعدم الاستقرار لابد أن يعقبها فترة الاستقرار وعودة لقيم العدالة والنظام ، كل ما هنالك أن مصر تحتاج لهذه الشخصية الحاكمة

القوية التى تعيد لم الشمل وتحقق القدوة المطلوبة للحكم العادل الـــذى يطبق الماعت على نفسه قبل أن يفرضها على الشعب .

إن هذه هى مفردات خطاب النبوءة فى الفكر السياسى ، إنـــه خطاب صادر عن صفوة الشعب أى الحكماء ، ليعبر عن ضمير هذا الشعب فى الحالتين ؛ فهو يعبر عن ضمير الشعب حينما يصف سوء الأحوال الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التى يعانى منها الجميـــع ، وهو يعبر عن ضمير الشعب حينما يحلم بعودة النظام والاســـتقرار وبالحاكم القوى العادل الذى يعيد إلى الدولة المركزية هيبتها ســـواء فى الداخل أو فى الخارج .

وسنقتصر هنا على النظر فى نموذجين من نماذج هذا الخطـاب التنبؤى فى الفكر السياسى المصرى القديم . أولهما : قدمـــه الحكيـم إيبوور والثانى قدمه فى نفس العصر الحكيم نفرروهو وهو أو نفرتى.

(أ) خطاب النبوءة فى " تحذيرات إيبوور " :

عاش الحكيم المصرى إيبوور أو أيبو العجوز على الأرجـــح فى أواخر عهد "ببى الثانى" [١٢٢] أو فى عهد أحد خلفائه الضعـاف .

ويغلب على الظن أنه كان ذا صلة ما بمناصب الدلنا وأنه نجح بعد جهد فى أن يبلغ صوته إلى أهل السلطة ويبدو من بردبته أنه ربما قابل الفرعون نفسه . ويبدو أيضاً أنه كان صاحب آراء إصلاحية عبر عنها فى هذه البردية . وحفظها عنه المصريون ورددها الوطنيون المصريون أجيالاً طويلة من بعده . ثم سجلوا قصته وآراءه على صفحات البردى . وبقت صورة من صورها فى بردبة كتبها أحد أدباء الدولة الحديثة وتعرف الآن اصطلاحاً باسم " بردية ليدن " بعد أن انتقلت حوزتها إلى متحف ليدن (١٢٣) . وقد أطلق برستيد على هذه البردية اسم تحذيرات إيبوور (١٢٤) ، وأطلقت عليها كلير لالويت " مرثيات إيبوور " (١٢٥) . وإن كان الأصدق تعبيرا عن مضمونها أن نطلق عليها " تحذيرات ونبوءات إيبوور " فالنص يصف حالة الفوضى الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التى عمت مصر فى أعقاب اضطرابات الثورة الاجتماعية التى شهدتها البلاد مع نهاية عصر الدولة القديمة وإبان مرحلة الانتقال الأولى حول عام ٢١٩٠ - ٢٠٧٠ ق.م. ويشتمل على ستة أجزاء أو أدوار تبدأ كلها بكلمة أولى واحدة تتكرر كالأزمة فى كل مقطع من

المقاطع هى كلمة " انظر " أو "انظروا" وعقب هـذه الكلمـة يـورد إيبوور حالة من حالات الاضطراب والفوضى ويصف حالة اليـأس التى عمت البلاد وظهرت على وجوه المواطنين . ويتدرج بنا النـص من وصف لهذه الحالة المضطربة اليائسة إلى التحسر على التـوازن المفقود للمملكة المستقرة، ثم ينتقل من هذا أو ذاك إلى التنبؤ والحلـم بمستقبل أفضل ستعود فيه حياة المصريين إلى سابق عهدها ، تلـك الحياة المستقرة – المرحة على ضفاف النيل . (١٢٦)

بنقسم النص إلى قسمين رئيسيين ؛ يقدم فـى أولـهما عـبر الأدوار الخمسة الأولى وصفا أدبيا دقيقا للحالة التى آلت إليها البـلاد فى عصره فى مختلف جوانب الحياة ، ويقدم فـى الـدور السـادس والأخير آماله وتنبؤاته بخصوص المستقبل .

ويبدو من ذلك أنه يركز على وصف الحالة القائمة بصورتـها اليائسة القائمة . ويلاحظ أنه يركز أكثر على تصوير ملامح لثـورة طبقية قد حدثت وترتب عليها تدمير البنية الاجتماعية وانقلاب الـهرم الاجتماعى . ويعبر إيبوور بوضوح عن ذلك فى قوله :

" انظروا إذن ، فالرجال المفلسون صاروا أصحاب ثـروات . ومن كان يتعذر عليه أن يصنع لنفسه زوج نعال يملك منها أكواماً .

انظروا إذن ، إن خدمهم مهمومو القلب وعظماء الأمـس لـم يعودوا يختلطون برجالهم ليفرحوا . . .

انظروا إذن ، الأغنياء ينتحبون والمعوزون فى فرح ، وكـل مدينة تقول : دعونا نطرد الأقوياء من دارنا [١٢٧] .

انظروا إذن ، إن جسد هذه السيدات النبيـلات يعـانى مـن الأسمال التى يرتدينها وقلوبهن مغمومة عندما يقوم المرء بتحيتهن .

انظروا من كانوا يشيدون المنازل باتوا الآن يعملون فى الحفـول . من كانوا فى قارب الإله باتوا الآن يساقون للعمل على متنه [١٢٨] .

انظروا إذن ، لا يمكن التمييز بين ابن الرجل الطيب المولـد من البائس . . . انظروا إذن ، الكبار والصغار يتمنـون المـوت ، ويقول الصبية الصغار : ما كان ينبغى لأبى أن يمنحنى الحياة [١٢٩] .

انظروا إذن ، العظماء جوعى وبتألمون ، ولكن الخدم أصبـح لهم من يخدمهم . . انظروا إذن ، الناس يركضـون ويتصـارعون

للتزود بالطعام . الرجل الثرى يسرق ويتم الاستيلاء على جميع مـــا يملك [١٣٠] .

انظروا ، ذلك الثرى الذى لم يكن فى إمكانه أن يصنع لنفســـه تابوتاً ، بات يمتلك الآن مقبرة . انظروا ، إن الســـيدات الكريمـــات الأصل يرفدن على الألواح والأعيان ألحقوا بالحوانيت . ولكن الـــذى لم يكن فى مقدوره أن ينام ولو على صندوق يمتلك الآن سريراً .

انظروا ، الرجل الثرى فيما مضى يبيت الآن ظمآنـــا ، أمـــا الذى كان فى الماضى يستجدى رواسب الأقداح فقد أصبحت الجعـــة عنده من الآن نفيض عن الحاجة [١٣١] . انظروا من لم يكـــن عنـــده مجرد علبة ، فى حوزته صندوق حلى . ومن كانت ترى وجهها فـــى الماء نمتلك الآن مرآة من النحاس [١٣٢].

انظروا من لم يكن يمتلك مجرد ثوربن مقرونين صـــار فـــى حوزته الآن قطيع . ومن لم يكن فى استطاعته أن يجد ثيرانا للحرث يمتلك الآن المواشى .

انظروا من لم تكن عنده بذور يمنلك مخازن غلال ، من كـان يجلب لنفسه قمحاً يقترضه يقوم هو الآن بتوزيعه .

انظروا من لم يكن له مجرد جبران ، صار الآن صاحب خدم ولكن نبيل البارحة ينحز بنفسه مهامه " (١٣٣) .

إذن لقد صور إيبوور بهذه الصور المتتالية عبر هذا النـص ملامح التغيرات الاجتماعية التى حدثت إبان الفـترة التـى يصـور أحوالها ، ولا شك أن أبرز هذه التعبرات تنلخص فى تلك الفوضـى السياسية التى ترتب عليها تغير أحوال الناس فأصبح الغنى فقـيراً ، وأصبح الفقير ثرياً ! وإذا تساءلنا : كيف حدث ذلك ؟! فلن نجد إجابة شافية واضحة من خلال النص نفسه اللـهم إذا عزونـا ذلـك إلـى الانهيار السياسى وفقدان السلطة المركزية للدولة لهيبتها فى نفـوس المواطنين مما ترتب عليه انتشار أعمال اللصوصية والسلب والنـهب فى طول البلاد وعرضها ، فضلاً عن تسرب عناصر أجنبية كثـيرة إلى داخل البلاد . وقد عبر إيبوور إجمالاً فى مطلع النص الموجـود بين أيدينا رغم ما فيه من فجوات عن هذه العوامل حينما يقـول " . . . يقول البوابون : إننا راحلون للنهب . . ولم يعد الغسال يفكر فـى

حمل حملة. . . واصطف صيادو العصافير فى وضع المعركة . . ويحمل أهل الدلتا التروس . . وينظر المرء إلى ابنه على أنه عدوه . . تعال واستول. . الإنسان القوى الشكيمة يسير مغموماً بسبب ما حل بالبلاد.. وفى كل مكان يختلط الأجانب بشعب مصر حيث يصعب التمييز بينهم " (١٣٤) .

وقد نتعرف على بعض تفاصيل هذه العوامل التى أدت إلى هذه التغيرات الاجتماعية الحادة بين ثنايا وفقرات النص . فقد قال إيبوور ضمن ما قال " لقد ابتليت البلاد بعصابات اللصوص وعلى المرء أن يذهب للحرث ومعه ترسه " (١٣٥) . كما قال " انظروا . . فالسلاب . . فى كل مكان والخادم محمل بما استولى عليه " (١٣٦) . وقد انتشرت هذه الأعمال فى السلب والنهب لدرجة " أن قاعة المحفوظات الكبرى قد سلبت مدوناتها ، وإن مكان الأسرار قد جرد الآن من محتوياته " ، كما " أصبحت المكاتب الإدارية مفتوحة واختفت منها السجلات " ، و " قد قتل الكتبة واختفت مدوناتهم " كما " أن كتبة مكتب الحبوب قد انتزعت أيضاً دفاترهم " (١٣٧) .

وبالطبع فقد أدى كل ذلك إلى توقف حركة الدولة تقريبا وأصيبت البلاد بالفوضى السياسية الشاملة . إن حركة الحكومة المركزية قد شلت ولا أدل على ذلك من قول إيبوور : " إن فوانين القاعة الخاصة (قاعة العدل) [١٣٨] قد طرحت خارجا بحيث يدوسها الناس فى الشوارع ويمزقها المعوزون فى الطرقات " [١٣٩] و " أن المجلس الخاص العظيم قد نم اجتياحه والمعوزون يروحون ويجيئون فى" البيوت العظيمة " [١٤٠] . فضلا عن " أن المفر الملكى قد دمر فى ظرف ساعة واحدة . وأن أسرار البلاد التى كان يجهل الناس حدودها كشف عنها الحجاب " [١٤١] ، وما كان يمتلكه القصر الملكى له الحياة والصحة والقوة قد تم نهبه " [١٤٢] .

وبالطبع فقد صاحب هذه الفوضى السياسية والاجتماعية والأخلاقية انهيار دعائم الاقتصاد المصرى فالنيل " صار نهرا من دم، وإن شرب منه أحد فسيبصقه لأن هذا الدم دم بشرى والناس ظمأى للماء " [١٤٣] ، وأصبح الناس يفتقرون إلى الذهب وأيضا إلى المواد اللازمة لمختلف الأعمال " [١٤٤] . وفى " الوحه الفبلى لم تعد الناس تدفع الضرائب بسبب التمرد . . إننا نفتقر إلى الفاكهة وفحم

الخشب ومختلف أنواع الخشب . . إن كل شيء قد تـــهدم " [١٤٥] ، إن الأشجار قد أتلفت والأغصـــان تجـــردت " [١٤٦] ، " لقـــد أتلفـــت الحبوب على جميع الدروب " وأصبح الناس " محرومون من الثيـــاب والعطور والزيوت . وكل واحد يقول : لم يعد يوجد شيء . الحانوت خالٍ وحارسه ممدد على الأرض وسط العشب " [١٤٧] . " إن البشـــر يتغذون على الأعشاب ، ويشربون الماء فالفواكه والنباتـــات والطيـــور ذاتها لم تعد موجودة . . . " [١٤٨] . ولقد أثر هذا الانهيار الاقتصـــادى بالطبع على أنحاء البلاد حتى " لقد روع القصر الملكـــى مـــن جـــراء المجاعة " [١٤٩] ، ولم " يعد الحرفيون يجدون عملاً " [١٥٠] .

وهكذا فقد تصاعدت نغمة البؤس واليأس عنـــد إيبـــوور فـــى وصفه لحال البلاد الذى يبعث على الغم والصجر لدرجة جعلته فـــى بعض ما قال يكاد يفقد الثقة فى قومه ويصفهم بأحط الصفات " فلقـــد انحدر الناس إلى أسفل سافلين " ، وذلك لأن بعـــض الأشـــقياء قـــد اختطفوا الملك " [١٥١] . " وحرموا البلاد من الملكية " [١٥٢] .

فلقد اعتبر إيبوور أن بلوغ الناس هذه المرتبة المنحطـــة مـــن الأخلاقية إنما يرتبط بتعديهم على مليكهم وعلى قصره وعلى أولاده!

إذ إن تعدى الناس على مليكهم فى رأيه يجعل منهم أشبه " بقطيع يضل فى غياب راعيه " [١٥٣] . إن إيبوور لم ينس أن الملك والملكية واحترامهما واجب على كل مواطن مصرى باعتبار أن الملك لا يزال رغم كل شيء رمز البلاد وعنوان استقرارها وهيبتها !

وعلى أى حال ، فإذا كان إيبوور قد بالغ فى عرض الصورة الفاتمة لأحوال البلاد الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية إلى هذا الحد الذى جعله يقول أن الإنسان " بسير مغموما بسبب ما حل البلاد " ، و " أن الشقاء أصبح يعم البلاد بأسرها " [١٥٤] . وأن " قلب الحيوانات صار يبكى أيضا ، وأن القطعان غارقة فى النواح بسبب أحوال البلاد " [١٥٥] .

أقول إذا كان إيبوور قد بالغ فى عرض هذه الصورة الفاتمة عن حال البلاد فى عصره ، فإنه لم يكن ليفقد الأمل فى مستقبل بلاده. فقد ختم نصه العريد . بالتنبؤ بالمستقبل السعيد للمملكة المصرية. وفى هذا دلالة قاطعة على أنه لم يفقد الثقة تماما فى نفسه ولا فى الإنسان المصرى القادر رغم كل الظروف غير الموانية أن يستيقظ وأن يهب لنجدة نفسه وبلاده ليعود بها إلى سيرتها الأول ، وليقفز بها إلى عصر جديد من الهدوء والاستقرار والنظام .

والطريف أن إيبوور لم يختم نصه بهذا الخطاب التفاؤلى فجأة، بل استند فى حديثه عن التنبؤ بالمستقبل ، على تذكر الماضى السعيد لبلاده وقت أن كانت تتمتع فى سالف الأيام بالرخاء والاستقرار . ولنتأمل معا بعض تلك الذكريات التى برويها :

" تذكر الطيور السمينة والإوز والبط والقرابين المخصصة للآلهة .

تذكر النطرون الذى كان يمضغه الناس والخبز الأبيض الذى كان بعده الإنسان . تذكر السوارى التى كانت تقام ، وموائد القرابين التى كانت نفطع ، والكهنة وهم يطهرون الهياكل ، والمعبد الأبيض كاللبن ورائحة عطر الأفق الذكية ووفرة القرابين .

تذكر مراعاة القواعد ، والتنابع الصائب للأيام . . " (١٥٦) .

ولنلاحظ معا كيف تركزت هذه الذكريات حول الرخاء الافتصادى والاستقرار الاجتماعى اللذين يقودان الناس إلى الاستمتاع بالحياة الدنيا ناظرين فى أمل إلى الحياة الأخرى بممارسة العبادات وتقديم القرابين والعناية بالمعابد والهياكل الإلهية .

ولنلاحظ كذلك كيف اختتم إيبوور ذكرياته وتأملاته للماضى بقوله " تذكر مراعاة القواعد والتتابع الصائب للأيام " ، فهو يشير فى هذه العبارة إلى أمرين فى غاية الأهمية أولهما : أن مراعاة القواعد أى القوانين والنظام " الماعت " هو أساس كل ذلك الرخاء الاقتصادى والاستقرار السياسى والاجتماعى الذى تمتع به المصريون فى الماضى . وثانيهما : يشير فيه إلى أن تتابع الأيام على النحو السليم إنما يبشر بتكرار نفس ما حدث فى الماضى فى المستقبل .

وعلى هذا الأساس الواثق فى إمكان تكرار أحداث الماضى الزاهر فى المستقبل يتنبأ إيبوور بأن كل شىء سيعود إلى سيرته الأولى فى وطنه . إنه يرى بعين المستقبل الحاكم الأمثل الذى يتوق إلى قدومه ، وأن هذا الملك المثالى سيكون صورة للملك الأمثل الذى حكم مصر فى يوم من الأيام باسم إله الشمس " رع " [١٥٧] .

ولما كان إيبوور يرى أن سلطة ذلك الملك – الإله المقدسة تمثل العصر الذهبى لمصر القديمة ، فإنه يبدأ فى الموازنة بين عصره الذهبى ذاك ، وبين العصر الملكى الهزيل الذى ترزح تحت عبئه البلاد فى الوقت الذى يعيشه . وهو يقول فى إطار هذه الموازنة:

" فهو يطفئ لهيب الحريق الاجتماعى ، ويقال عنه إنه راعى كل الناس ، ولا يحمل فى قلبه شرا . وحينما تكون قطعانه قليلة العدد ، فإنه يصرف يومه فى جمع بعضها إلى بعض وقلوبها محمومة من الحزن . ليته عرف أخلاقها فى الجيل الأول، فعندئذ كان فى مقدوره أن تمد ذراعه ضده (يعنى الشر) وكان فى مقدوره أن يقضى على بذرتهم هناك وعلى وراثتهم . . فأين هو اليوم ؟ هل هو بطريق المصادفة نائم ؟ أتظن أن بأسه لا يرى . . . " (١٥٨) .

إن إيبوور يقدم هنا صورة لذلك الحاكم الأمثل الذى ينبغى أن يبدأ عمله بإطفاء لهيب الثورة الاجتماعية والصراع الطبقى ، ويكون راعيا لكل الناس قادرا على جمع شتاتهم فبقيهم حالة الحزن التى وقعوا فيها نتيجة المصائب التى حلت بهم.

إنه ذلك الحاكم القادر على أن يعيد أخلاق الجيل الأول من الملوك الإلهيين الأقوياء الذين كانوا يستطيعون الوقوف ضد الشر ، إنه الحاكم القادر على القضاء على بذرة الأشرار ووارثيهم ولكن السؤال الذى يقلق مضاجع إيبوور هو : أين هذا الحاكم الأمثل ومتى يظهر ؟!

وهو يجيب بنفسه على السؤال فى ثنايا طرحه له ؛ فهذا الحاكم الأمثل قادم بلا شك إذ ربما يكون موجودا الآن بين الناس وإن كان بأسه لم يرى حتى الآن . فعنصر الأمل فى ظهور هذا الملك الصالح المنتظر عند إيبوور – هو على حد تعبير برستيد – أقرب من حبل الوريد وهو أمر محقق (١٥٩) .

والطريف فى الأمر أن إيبوور يتنبأ بظهور هذا الحاكم الأمثل بهذه الأخلاق الطاهرة النقية ، وبهذه الأعمال الخبرة القادرة على إعادة البلاد إلى سيرتها الأولى فى تطبيق العدالة والنظام وسحق الأشرار فى وجود وحضرة الملك الحالى للبلاد الذى يوجه إليه خطابه وفى حضرة العديد من أفراد حاشيته .

ولقد بلغ إيبوور حدا بعيدا من التعبير بجرأة وحرية أمام هذا الملك نلمسه بوضوح حينما يقول له :

" إن الأمر الملكى والمعرفة العدالة (ماعت) فى قبضة يدك ، ولكن ما تضعه فى البلاد هو النزاع وصوت القلاقل . . . ولقد فعلت ذلك لتشتد علينا هذه الأمور . لقد نطقت زورا وبهتانا " (١٦٠) .

إذن لقد اتهم إيبوور ملكه صراحة بأنه السبب فى كل ما حدث من قلاقل واضطرابات وفوضى فى مصر ، وأنه فعل ذلك عن عمد لتشتد على رعيته الأمور ويعيشون فى هذه الحالة من الضنك والغم ، والبلاء ، والخراب القومى الشامل !

فماذا فعل الملك – الإله بإيبوور وهو رغم كونه أحكم حكماء عصره مجرد فرد فى رعية هذا الملك ؟! هل أنزل به غضبه الإلهى وعاقبه على جرأته فى سبابه ؟ هل ألجمه ومنعه من الكلام وألزمه مكانه كما يفعل بعض حكام اليوم فى ظل عصر يتغنون فيه بالديموقراطية والحرية ؟!

أبدا ، لقد فعل الملك – الإله مع إيبوور عكس ذلك تماما ؛ فقد رد على تلك الاتهامات التى وجهها إليه بالتذرع بأنه حاول قدر طاقته حماية شعبه بالوقوف فى وجه الأجانب الذين كانوا يهاجمون البلاد(١٦١).

وقد دفع ذلك الموقف الملكى إيبوور إلى التخفيف من حدة اتهاماته ونظر إلى مولاه – على حد تعبير ويلسون – بشىء من العطف حينما قال له : " إذا كنت تجهل ذلك فإنه أمر محبب إلى

القلب . لقد فعلت ما هو حبيب إلى قلوبهم لأنك جعلت الناس يعيشون بسبب ما فعلته ، ولكنك تغطى وجوههم خوفا من الغد " (١٦٢) .

إن إيبوور يرى أن ما حدث من الملك إذن كان عن حسن نية، لكن حسن النية والقصد لا يكفيان وحدهما للحكم الصالح ، والدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية ليس مبررا كافيا لأن تعيش البلاد الفوضى والاضطرابات والانهيارات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى الداخل ! فالمفروض فى الحاكم الصالح أن يؤمن للناس حياة الاستقرار فى الداخل والخارج معا ، وأن يجعلهم على ثقة فى المستقبل بتأمين حياتهم فى الغد .

إن ما أود أن ألفت الانتباه إليه هنا ، هو تلك الندية فى الخطاب السياسى بين إيبوور وهو يمثل الشعب ، والملك الذى يمثل السلطة الإلهية المقدسة حتى ذلك الحين الذى يجرى فيه هذا الحوار بين أحد أفراد الشعب وبين الملك وجها لوجه .

إن هذه الندية تكشف عن أن الانهيار الاجتماعى والسياسى الذى شهدته البلاد فى هذه الفترة لم يخل من نتائج إيجابية تمثلت

إحداها فى هذا التقارب بين طبقة الحكام وبين عامة الشعب ، مما أتاح الفرصة لأن يشكو العامة سوء الأحوال وأن يسنمع الملك وحاشيته لهذه الشكاوى وأن يحققوا فيها ، وأن ينصتوا لما يوجه إليهم من اتهامات وأن يردوا عليها .

إن فى هذا التقارب الاجتماعى والسياسى نوعا من الشعور بالمساواة الاجتماعية التى أحسن ويلسون توصيفها فسماها " الديموقراطية " دون أن يقصد بالطبع هذا النوع من الديموقراطية السياسية ذات الرنين المثير فى عصرنا الحالى ، ودون أن يقصد بالطبع أن صورة الحكومة فى مصر القديمة قد طرأ عليها التغير نحو ما ندعوه فى العصر الحالى بحكومة الديموقراطية . وإنما المقصود هنا هو ديموقراطية من نوع مختلف ، ديموقراطية اجتماعية مفادها أن الحواجز قد كسرت بين الحكام والشعب وأنه لم تعد هناك حواجز سياسية أو اقتصادية تحول بين التقاء الطرفين فى عصر بدأ الناس فيه سواء كانوا حكاما أو محكومين يؤمنون بالمساواة بين البشر فى الحقوق والفرص [١٦٣] .

إنها المساواة فى الخلق والحقوق الطبيعية وفـرص الحيـاة ، وهذه هى ديموقراطية الخالق فى خلقه كما عبرت عنها أحد نصوص التوابيت المصرية القديمة . انظر إلى قول الإله الخالق : " لقد خلقت أربعة أشياء عظيمة فى داخل بوابة الأفق . خلقت الرياح الأربع التى يستطيع أن يستنشقها كل إنسان كزميله الذى يعيش فى زمانه ، هـذا هو العمل الأول .

وخلقت الفيضان العظيم ، وللفقير فيه حق مماثل لحق الرجـل الغنى ، وهذا هو العمل الثانى وخلقت كل رجل مثل زميله ولم آمـر بأنهم يعملون السوء ، ولكن قلوبهم هى التى أفسدت ما قلت ، وهـذا هو العمل الثالث .

وجعلت قلوبهم تفكر دائما فى الغرب (*) حتى يسـتمر تقديـم القرابين الإلهية لآلهة الأقاليم ، وهذا هو العمل الرابع . . . " (١٦٤) .

إذن لم تكن هذه النزعة نحو المساواة الاجتماعية بين البشـر فى الحقوق وفرص الحياة ، ولم تكن هذه النداءات المستمرة لإعـادة

(*) " الغرب " هنا إشارة إلى عالم القبر والموت .

تحقيق العدالة بين المجتمع من قبل أفراد الشعب المصرى كما بدت على لسان القروى الفصيح أو على لسان إيبوور وغيرهما ، لم يكن كل هذا استثناء فى التاريخ الفكرى لمصر القديمة ، بل كان مطلبا ينم عن إدراك قوى وعميق لدى المصريين منذ فجر تاريخهم للمساواة الطبيعية بين البشر أمام الخالق ، فالجميع خلقهم الإله ، والجميع لهم حق التمتع بالحياة على نفس النحو وبنفس الطريقة .

كل ما هنالك أنه قد علت نبرة المطالبة بهذه المساواة الاجتماعية فى العصر الذى عمت فيه الفوضى . وحاول فيه بعض من فى يدهم السلطة السياسية استغلالها لتحقيق المزيد من الثروات بالاستيلاء على ثروات الآخرين واستباحة حقوقهم . إن شكاوى القروى الفصيح ما هى إلا صدى لذلك الظلم الذى استجد فى هذه الفترة من التاريخ المصرى ولم يكن موجودا من قبل ، وكذلك تحذيرات ونبوءات إيبوور كانت صدى لهذه الظروف المضطربة ورد فعل لهذا الخراب الشامل الذى حل بالبلاد فكان على الحكيم وهو صوت الشعب وضمير الأمة أن يجأر بالشكوى وأن يعلن على الملأ ما كان يعتمل فى نفوس كل معاصريه ، وأن يعبر عن أمانى الشعب

المصرى فى ظهور ملك عادل يعيد الأمور إلى نصابها ، ويعدل ميزان العدل الذى مال ، ويعيد الاستقرار الذى فقد ، والعدل الذى افتقد .

والجدير بالذكر أن إيبوور لم يتوقف فى حلمه البوتوبى عند حد المطالبة والتنبؤ بذلك الحاكم الصالح الخبر العادل القادر على أن يلم شتات البلاد والعباد وأن يعيد الاستقرار والعدالة إلى ربوع مصر بل تعدت ذلك إلى رسم صورة مثالية للحياة السعيدة الهادئة التى يتمنى أن تعود إلى بلاده مرة أخرى . ولنتأمل معا ملامح هذه الحياة المثالية السعيدة فيما يقوله إيبوور :

" إنه لأمر طيب بالتأكيد ، أن نهبط على النهر . . . إنه لأمر طيب بالتأكيد عندما تكون الشباك ممدودة والعصافير ممسوكة . . إنه لأمر طيب بالتأكيد . . عندما تكون الطرقات معدة للنزهة .

إنه لأمر طيب بالتأكيد . . عندما تشيد أيادى الرجال الأهرامات وتحفر البحيرات وتعد بساتين الفواكه للآلهة .

إنه لأمر طيب بالتأكيد ، عندما يكون الناس سكارى ويشربون بقلب مبهج .

إنه لأمر طيب بالتأكيد عندما تملأ صيحات الفرح جميع الأفواه، بينما رؤساء الأقاليم يقفون هنا يشاهدون من منازلهم الأفراح العامة ، وقد ارتدوا الكتان الرقيق ، وأمسكوا أمامهم عصى القيادة بقلب أبى .

إنه لأمر طيب بالتأكيد ، عندما تكون الأسرة مرتبة ، ويكون مخدع كبار القوم محميا يوضع على أحسن وجه ، وعندما تكون حاجة كل إنسان مكفولة بكل بساطة بحصير فى الظل ، والباب موصد على من يرقد فى الأدغال " (١٦٥) .

إنها ملامح لحياة اجتماعية سلسة بسيطة ، يعيش فيها الإنسان حرا طليقا سواء فى عمله أو فى قضائه لأوقات الراحة والنزهة . ولا يمكن للقارئ أن يدرك عمق مطالبة إيبوور بصورة هذه الحياة المرحة البسيطة إلا إذا أعاد قراءة الأدوار والفقرات السابقة من خطابه ، تلك الفقرات التى تصف كيف أن الشر وأن والأعداء كانوا يتربصون بالإنسان فى كل مكان ، وكيف أن الأمان قد فقد فى عصر الفوضى فلم يعد الإنسان قادرا على أن يعيش حياته الطبيعية بحرية ، ولم يعد يستطيع ممارسة أبسط مبادئ حياته بدون أن يواجه بالمنع أو بالمؤامرات أو بالاعتداء عليه من الآخرين !

إن صورة الحياة السعيدة التى يتمناها إيبوور هى النقيض لما كان يعانى منه الإنسان المصرى فى تلك الفترة من تقييد لحرياته ومن فوضى وخراب عم أرجاء البلاد .

فكل ما يتمناه إيبوور هو أن تعود إلى الإنسان المصرى ــ فى ظل وجود نظام عادل للحكم يحقق الاستقرار والأمان ــ حياته الهادئة المرحة التى يستطيع خلالها أن يمارس هواياته فى التنزه على ضفاف النهر والصيد فى الوقت الذى يكد فيه ويعمل فى بناء الأهرامات وحفر البحيرات وزراعة البساتين والحقول.

وما يتمناه إيبوور ليس مقصورا على عودة الحياة الطبيعية السعيدة إلى أفراد الشعب وإنما يمتد ليشمل أيضا الأسرة الملكية وأفراد السلطة التنفيذية وحكام الأقاليم. إذ يتمنى إيبوور أن يعيش هؤلاء حياتهم ببهجة وسرور وأن تملأ حياتهم من جديد صيحات الفرح وأن يعودوا إلى مشاهدة الأفراح العامة من شرفات منازلهم وقد ارتدوا أفخر الثياب ممسكين بعصى القيادة فى إباء وشمم ؛ فقد حققوا الأمن للجميع ومن ثم ينعمون بآثاره عليهم فيفرحون مع الشعب دون قلق أو خوف مما يعكر صفو الأفراح .

إن هذه الحياة السعيدة الآمنة لا تتحقق للحاكم دون المحكـوم ، أو للمحكوم دون الحاكم ، فالكل ينبغى أن يعيش هذه الحياة على قـدم المساواة ، ففى الوقت الذى ينعم فيه كبار القـوم بحياتـهم الفرحـة المبهجة وبأسرتهم المرتبة الأنيقة وببيوتهم الفاخرة الآمنة ، ينبغى أن تكون حاجة كل إنسان مكفولة حتى ولو اقتصرت على الضروريـات دون الكماليات ، إذ ينبغى أن ينعم الإنسان العادى البسـيط بالأمـان حتى ولو كان يعيش على حصيرة فى ظل شجرة ظليلة أم متشـردا يعيش فى الأدغال الموحشة . فللجميع الحق فى التمتع بضروريـات الحياة بحرية وآمان .

وما أجملها من صورة يوتوبية لحياة بشرية سعيدة يتمتع فيـها جميع الناس بدولة مستقرة آمنة يحكمها حاكم قوى عادل ، ويعيـش فيها مواطنون أحرار سعداء . ما أجملها من حياة يحلـم بـها إيبـو العجوز فى عصر مضطرب ساده الدمار والفوضى !

(ب) نبوءات نفرروهو (نفرتى) :

أما النموذج الثانى على خطاب النبوءة فـهى برديـة يعـود

تاريخها إلى نفس العصر ونفس الفترة التى كتب فيها إيبوور برديته، وقد كتبها كاهن مرتل من كهنة الآلهة باســـت يدعـــى نفرروهـــو أو نفرتى، وقد كان يطلق عليه فى عصره " رجل الشرق الحكيم " باعتباره كان أحد أبناء شرق الدلتا حيث كانت تقع مدينة بوباسيتس [١٦٦] .

ويرجح أن البردية كتبت فى مطلع الأســـرة الثانيـــة عشـــرة حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م فى عـــهد الملـــك أمنمحـــات الأول . [١٦٧] والطريف أن الخطاب فيها يحمل صيغة التنبؤ بأيام وأحداث مستقبلية ؛ فكاتبها يبدأها بمقدمة توحى فى الظاهر بأنها كتبت فى عهد الملـــك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة الذى كان ينشد التســـلية فطلـــب مـــن رجال حاشيته أن يقصوا عليه قصة تسعده وتشرح صدره ، فذكـــروا له أنه يوجد بالخارج ذلك الكاهن المسن البارع الأنامل مرتل معبـــد الإله باست ، فأمر بإحضاره ، ولما حضر طلب إليه أن يقص عليـــه أقوالا جميلة تسره ، ولما سأل نفرروهو : أيحكى لـــه عـــن أمـــور الماضى أو أمور المستقبل ؟ قال له : بل عن أمور مقبلـــة لأن مـــا يحدث فى الحاضر سرعان ما يصبح ماضيا [١٦٨] !

ولكن من الواضح كما يجمع المؤرخـــون أن هـــذه المقدمـــة التاريخية مقدمة مزعومة ولبست صحيحة [١٦٩] ، لأن البردية نصـــف

الحالة التى كانت عليها البلاد فى عصر الانتقال الأول مثلها فى ذلك مثل بردية إيبوور ، وربما كتبت بعد بردية إيبوور نظرا لأن صاحبها يتنبأ حرفيا باسم الملك أمنمحات باعتباره الحاكم الأمثل الذى سيخلص البلاد من حالة الفوضى وينقلها إلى عصر الاستقرار والازدهار .

ولذلك فقد قيل بحق إنها تعد من " آداب الدعاية الملكية "[١٧٠]؛ إذ ربما تكون قد كتبت بالفعل فى عصر أمنمحات الأول نفسه وليس قبل ظهوره ، وإن كانت قد اتخذت تلك الصورة التاريخية التنبؤية فما ذلك إلا لكى تقنع الجميع فى المملكة المصرية بأن تولى الملك أمنمحات العرش إنما كان تنفيذا لأمر إلهى أرادته الآلهة منذ الأزل وتنبأ به الحكماء وسمعته أذنا الملك سنفرو الذى آلهة المصريون فى الأسرة الثانية عشرة وكان له بين الناس مكانة مرموقة لم ينلها أى من الملوك السابقين [١٧١] .

ومع إدراكنا لذلك ، وتسليمنا بأن النص ربما يكون قد كتب فى عصر أمنمحات نفسه إلا أننا لا نملك إلا أن نقرأه على ما هو عليه بصيغته التنبؤية ، والنص كالعادة فى معظم ما ورد إلينا من

نصوص لحكماء مصر القديمة وفلاسفتها لم يصل إلينا فى صورته الأصلية ؛ فالنسخة التى اكتشفت حديثا على يد العالم الروسى جولينشف W.Golenischeff [١٧٢] قد نسخها كاتب من عصر الدولة الحديثة ممن عاشوا فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وقد كتبها على بردية قديمة من البرديات المستعملة فى تدوين حساباته الخاصة عندما لم يجد بردية جديدة يكتبها عليها [١٧٣] .

ويمكن القول إنها تنقسم من حيث المحتوى إلى ثلاثة أقسام ؛ أولها يشتمل على هذه المقدمة التاريخية المزعوم فيها أنها قد ألفيت على أسماع الملك سنفرو أى قبل العصر الذى نحن بصدده بحوالى ألف عام ! وثانى هذه الأقسام يشتمل على وصف دقيق لحالة البلاد فى العصر الذى نحن بصدده أى حوالى ٢٠٠٠ق.م قبيل تولى الملك أمنمحات الأول الحكم وانشغاله بتوحيدها والعمل على استقرارها . وثالث هذه الأقسام يقدم فيه نفرروهو تنبؤه بمقدم الملك مينى الذى سيوحد البلاد ويعيدها سيرتها الأول فى الاستقرار والازدهار . . وقد كتب القسم الثانى والثالث بصيغة المستقبل التنبؤية .

ويبدأ حديث نفرروهو فى القسم الثانى من البردية بالحسرة على أحوال البلاد فى ذلك الزمان القادم الذى سينتصر فيه الآسيويون

على البلاد بقوة السلاح وينشرون الرعب فى المناطق التى يستولون عليها . وهو يصف هذا الوضع المأسوى محاولا اصطناع الشجاعة فى مواجهة الأحداث فاستجماع شجاعة المرء فى هذه الحالة مسألة ضرورية لكشف الأحداث ووصف ما سيحل بالبلاد من خراب ؛ فالصمت فى هذه الحالة " سيكون عملا سيئا " ، ومن يتحدث سيكون جديرا بالاحترام [١٧٤] .

وهو يقدم فى البداية وصفا متشائما للحالة التى آلت إليها مصر فى ظل غياب حكومة وطنية قوية " إذ لم يعد العظماء هم الذين يشكلون " حكومة البلد " ، وما كان قد حدث فى الماضى يماثل الآن ذلك الذى لم يفعله أحد أبدا . وعلى " رع " أن يعيد الخلق من جديد . لقد هلكت البلاد بأسرها ولم يبق منها شىء . بل ولن يتبقى حتى مجرد سواد الأظافر من أقدارها " [١٧٥] . . .

" إن قرص الشمس المحتجب لن يسطع بعد ذلك حتى يمكن للشعب أن يبصر ، ولن يستطيع الناس الحياة طالما تغطيهم السحب . والبشر جميعا يصابون بالصمم بعد أن حرموا منه " [١٧٦] .

ولنلاحظ فى هذا العرض المتشائم للحالة التى عليها مصر فى تلك الفترة كيف ارتبط عند الكاتب السياسى بـــالكونى . فـــالخراب السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى تشهده البلاد إنما سببه عـــدم وجود الملك العظيم من أبناء البلاد وهذا الاستثناء الذى لم يحدث مـن قبل هو أن يحكم الأجانب مصر وأن يتدخلوا فى شئونها الداخليـــة ، ولذلك فلا إصلاح لهذه الحالة الفريدة من الفساد والخراب إلا بتدخـــل رع ، ورع فى الفكر المصرى هو إله الشمس ، وقد اتخذ الملوك فى مصر منذ عصر خفرع لقب ابن رع وظلت هذه القرابة الشمسية فـــى الألقاب الملكية حتى نهاية التاريخ المصرى (١٧٧) .

والمفكر المصرى القديم يقصد هنا التدخل الإلهى فى صـــورة ملك جديد من الملوك العظام الذين ينتسبون إلـــى الشـــمس . فـــهذا الملك– الإله القوى هو الذى سيزيل الغشاوة من على أعين الشـــعب فيستعيد الشعب بصره ووعيه ، فتعود الشمس نقية – قوية بلا حجب. وتعود الحياة الجميلة للناس بلا سحب تحجب عنهم الشمس سر الحياة!

إن هذه الصورة التى يرسمها نفرروهو هى فى نظره بمثابة إعادة خلق جديد لبلد هلك كل ما فيه . ولم يعد بالإمكان الإصلاح إلا بإعادة تشكيل كل شيء من جديد وعلى يد هذا الملك – الإله ابن رع.

ويستمر نفرروهو بعد ذلك فى عرض المعالم الجزئية لهذه الصورة الحالكة السواد لحالة البلاد فى عصر البلاء والفوضى ؛ فالنهر فارغ ويعبره الناس على أقدامهم ، وهم يبحثون عن الماء حتى تستطيع السفن أن تبحر عليها . إن مجرى النهر قد أصبح كالشاطئ " (١٧٨) .

و" لقد قضى على كل الأشياء الجميلة الطيبة " ، لقد حل الآسيويون الأعداء فى البلاد وانتشروا فى طولها وعرضها . ويحلولهم "تهتك خصوصيات المنازل ، ويطرد النوم من العيون" (١٧٩) لقد حدث فى البلاد ما لم يكن ينبغى أن يحدث لقد أصبحت أشبه بالرجل المريض حيث تم الاستيلاء على أسلحة الحرب وأصبح الناس فى حالة حرب إذ " يطلب الخبز بالدم ويضحك الناس ضحكة ألم ، ولن يبكوا بسبب الموت . ولن ينام بعد ذلك إنسان أبدا جوعان

بسببه. قلب الإنسان سيكون خلفه . . . إن الابن أصبح غريما والأخ عدوا والرجل قاتلا لأبيه . . . "[١٨٠] .

وهكذا سادت الأنانية وتقوقع كل إنسان داخل ذاته ولم يعد يطلب إلا المأكل والمشرب ولم يعد ممكنا الحصول عليهما إلا بالاقتتال ، وبذلك فقد الجميع راحة البال وفقدوا القدرة على النوم الهادئ . وأصبح الجميع عدوا للجميع حتى داخل الأسرة الواحدة فالأبناء أصبحوا يتقاتلون مع بعضهم البعض ومع آبائهم ! إنها إذن أشبه بحالة حرب الجميع ضد الجميع التى وصفها هوبز سائدة بين البشر فى حالة الطبيعة فى كتابه الليفياثان فى القرن السابع عشر الميلادى [١٨١] .

والجدير بالنظر هنا أنه يمكن بالفعل المقارنة بين وصف نفرروهو لحالة حرب الجميع ضد الجميع فى حالة غياب الملك القوى ــ العادل ــ الإلهى ، وبين نفس الصورة عند هوبز فكليهما يرى أن غياب السلطة السياسية القوية يعنى الانهيار والفوضى وعودة الناس إلى طبيعتهم الأنانية المتوحشة ، وأن عودة الناس إلى الحالة الأخلاقية ــ المدنية يرتبط بعودة السلطة السياسية القوية .

وإن كان الاختلاف بينهما لا يزال قائما ؛ إذ إن السلطة السياسية عند مفكرنا المصرى القديم هى سلطة العدل والإنصاف والحفاظ على الاستقرار والحريات الفردية ، بينما السلطة السياسية عند هوبز سلطة إنسانية قاصرة قوية لا يعد للأفراد فى ظلها من حقوق إلا حق الحياة والحركة فقط .

لقد برع نفرروهو فى وصف الصورة المتناقضة التى حلت بالبلاد فى ظل وجود الأجانب والأعداء بها حينما قال فى أسى " سوف يمتلئ كل فم " بـ "أحبنى" ! ولكن كل ما هو طيب سيكون قد ولى . وتهلك البلاد وتسن القوانين المناهضة لها، ويحل الضرر بما سبق خلقه والدمار بما كان موجودا فى وقت سابق بحيث يتساوى ما كان قد صنع مع ما لم يوجد قط . ويستولى البعض على ممتلكات رجل لإعطائها للأجنبى القادم من الخارج . إنى أصف لك السيد معوزا والأجنبى راضيا والذى لم يكن أبدا يملأ مخازنه بنفسه لم يعد يملك الآن شيئا . . . " (١٨٢) . إن "من كان ساعده ضعيفا يصبح قوى البأس ، وتقدم التحية لمن كان يقدمها فى الماضى .. إن الإنسان الأقل شأنا قد صار ذا شأن ، وما كان مقلوبا على الظهر هو الآن

مقلوب على البطن . . . إن الفقير يكدس ثروات هائلة . . والرجل البائس يأكل خبز القرابين بينما يعيش الخدم فى فرح . . " (١٨٣) .

إن هذه التناقضات الاجتماعية والاقتصادية التى حلت بمصر سببها الرئيسى ضعف السلطة الحاكمة وانهيار الحكومة المركزية . وهذا ما عبر عنه نفرروهو فى أكثر من موضع فى نصه ولخصه فى عبارة واحدة حينما قال " تضاءلت البلاد لأن الذين يحكمون كثيرو العدد . . . " (١٨٤) .

إن رؤية نفرروهو السياسية تتلخص فى أن الدولة الصالحة المثالية هى الدولة التى يحكمها الحاكم القوى ــ العادل ، وتتمنع السلطة المركزية فيها بالاحترام وتهابها الرعية رغم الحب المتبادل بينهما . إن الهيبة التى يفرضها الحاكم القوى على رعيته من شأنها لم الشمل وإعادة الوحدة للبلاد ، وتحقيق الاستقرار والقضاء على الأعداء والأشرار ومن ثم تحقيق العدالة الشاملة التى ينعم الجميع فى ظلها بالرخاء الاقتصادى .

وهذه الرؤية هى ما يقدم من خلالها نفرروهو تنبؤاته بشـــأن المستقبل و هى التى تتحكم فى تصوره للحاكم الأمثل وبصورة البلاد فى عصره . إن الخطاب التفاؤلى بشأن المستقبل عند مفكرنا يتولـــد من قلب الأزمة حالكة السواد التى تمر بها البلاد ، فكما أن النـــهار يولد من قلب الليل ، والشمس تهتك أستار الظلام وتتغلـــب عليـــها ، كذلك فإن الحال التى وصلت إليها البلاد والتى بلغـــت معـــها قمـــة الانهيار والتناقضات والفساد هى التمهيد الطبيعى والأرض الخصبـــة لظهور المخلص ــ البطل الذى ما إن يوجد حاملا الآمـــال والعـــزم وقوة الإرادة والقدرة على الفعل حتى تتفاعل معه الناس ويبتهج بـــه الشعب وننتقل البلاد من حال إلى حال ، تنتقل معـــه مـــن مرحلـــة الانهيار والتفكك إلى مرحلة جديدة من الوحدة والاستقرار والرخاء .

ولقد قدم نفرروهو فى القسم الثانى من برديته وصفا دقيقا لتلك الحالة التى ما إن تصل البلاد فيها إلى الذروة فى الانهيار والفســـاد حتى نكون مهيأة لاستقبال ظهور البطل المخلص .

ومن ثم يتركز الخطاب فى القسم الثالث على رسم صـــورة لـــهذا البطل المثالى المخلص الذى ينتشل البلاد والعباد من الحالة المتردية التـــى وصلوا إليها .

والطريف أنه يبدأ بتسمية هذا البطل المخلص ، فهو " سوف يأتى من الجنوب ، ويدعى " أمينى " صادق القول . . وهو ابن امرأة تنحدر من الإقليم الأول من أقاليم الجنوب وقد ولدت فى الوجه القبلى " وبالطبع فإن تسميته للملك بهذه الصورة الواضحة تكشف أن صيغة التنبؤ التى قدم بها وصفه للحالة المتردية إنما كانت مجرد تذكير بالحالة التى كانت عليها البلاد قبل تولى الملك أمنمحات (أمينى) الحكم . ومن ثم فقد كان خطابه العام أدخل إلى باب الدعاية لفترة حكم الملك أمنمحات ، ومن هنا كان ترجيحنا لأن النص قد كتب فعلا فى مطلع عصر الأسرة الثانية عشرة التى أسسها الملك أمنمحات نفسه .

وعلى أى حال ، فإن ما يعنينا هنا على الصعيد الفلسفى هو بيان معالم الصورة المثالية للحاكم كما يراها نفرروهو .

وأول ما يتكشف من هذه الملامح للحاكم الأمثل هى قدرته على توحيد البلاد وكسب رضى المجمع الإلهى وخاصة " حورس " و" ست " ؛ فهو " سوف يتسلم التاج الأبيض ، ويلبس التاج الأحمر وهكذا يوحد القوتين ، يرضى السيدين " حورس " و " ست " حسب رغبتهما " (١٨٥).

والمعروف أن حورس وست هما رمز الصراع الأبدى بين الخير والشر وتوازن القوى فى الكون ولهما سطوتهما وتأثيرهما القوى على الفكر السياسى المصرى القديم ، فقد كان " حورس " الإله الذى يحكم السماء والنجوم ذا صلة بالملوك الذين وحدوا مصر العليا ومصر السفلى ، وقد عينته الأقدار إلها ملكيا . ومنذ الأسرة الملكية الأولى أيضا اعتبر أن الملك قد ورث العرش والقوة معا من سيدين هما حورس وست [١٨٦] .

وثانى هذه الملامح أنه القادر على إحكام سلطته المركزية على مقدرات البلاد ؛ إذ " سيكون محيط الحقول فى قبضته " [١٨٧] . والمعروف أن الزراعة كانت هى المورد الأساسى للبلاد وكانت هذه هى المهنة الرئيسية لأبنائها . وعلى الملك القوى أن يمسك بزمام الأمر والنهى فى توزيع حصص المياه على الحقول فى الشمال والجنوب . وإذا ما حدث ذلك فإن هذا يكون مدعاة لسعادة الشعب حيث ان " شعب مصر سيبتهج فى عصره " أما هو " فسيحقق ــ من جراء ذلك ــ سمعة طيبة حتى الزمن اللانهائى وإلى أبد الآبدين"[١٨٨]. فالشعب المصرى كان يسعده دائما أن يعيش حياة الاستقرار فى ظل وجود ملك قوى عادل ، والملك القوى العادل يكتسب بأفعاله الطيبة الخلود والذكرى الطيبة إلى الأبد .

أما ثالث هذه الملامح فهى قدرة هذا الملك على القضاء على الأشرار ومطاردة الأعداء والمتمردين فى طول البلاد وعرضها ؛ " فالذين كانوا يميلون للشر والذين كانوا بخططون للعصيان ، انهوا كلامهم بسبب ما يثيره فى نفوسهم من رعب . وسوف يجهز على الآسيويين ويذبحهم و " التيمحو " (*) سوف بهزمهم لهيبه ، والمتمردون سوف يذوقون غضبه . والرجال من ذوى القلوب الفاسدة سيذوقون الرعب الذى ينشره الصل (*) الذى على جبينه . . ."(١٨٩).

إنه إذن القوى على الأعداء والأشرار ، وهو الذى ينشر الرعب بينهم ، فيكون ذلك مدعاة لأن يخضعوا له وأن يتوقفوا عن الكلام الخبيث ، وعن الأفعال الشريرة فينهوا تمردهم ويسلموا قيادهم

---

* التيمحو هم شعب كان يعيش فى الغرب من الدلتا فى منطقة ليبيا الحاليه أنظر هامش (٢٠٠) من نصوص مقدسة ونصوص دينية ، ص١٢٢) . وأطلق عليهم برستد فى ترجمته اسم "اللوبيون" . أنظر ص٢١٦من الترجمة العربية لكتابه : فجر الضمير .

* " الصل " المقصود به هنا هو الحية التى يضعها الفرعون على جبينه باعتبارها ابنة " رع " أو عين الإله الحارقة أنظر هامش ٢٠٠-ص١٢٢ من كتاب لالوبت : نصوص مقدسة ونصوص دنيوية .

طواعية له . إنه إذن أقرب إلى ذلك الحاكم " الليفياثان " صاحب السلطة القوية القاهرة عند هوبز . وإن كانت هذه القوة ـ القاهرة للأعداء الخارجيين وللأشرار والمتمردين فى الداخل . لا تتعارض عند مفكرنا المصرى القديم مع حنو الملك على شعبه وحرصه على تحقيق السعادة والأمن لهم ؛ فهو الذى " سيبنى " الأسوار التى تمنع الآسيويين من الوصول إلى مصر (١٩٠) . وهو الذى سيجعل هؤلاء الأعداء يعودون إلى طريقتهم المعتادة فى استجداء الماء لكى ترتوى منها ماشيتهم (١٩١) .

وهو الذى " ستعود معه " الحقيقة العدالة " إلى مكانها ويطرد الشر إلى الخارج وسيغتبط أولئك الذين سيشهدون ذلك ، الذين سيبقون فى صفوف حاشية الملك " (١٩٢) .

إن الإنجاز السياسى الكبير للملك الأمثل الذى يتنبأ به نفرروهو يتمثل إذن فى إعادة " الماعت " إلى البلاد ، وفى إعادة السعادة والبهجة إلى كل مصرى سيشهد عصره وينعم بالقرب من حاشيته . وهذا الإنجاز السياسى لن يتحقق إلا بعد أن يقضى هذا الملك على مثيرى الفتنة والشر من أعداء البلاد سواء فى الداخل أو

فى الخارج . والقضاء على هذا يتطلب منه الحزم والحسم فى معاملة أعداء الخارج الذين هم الآسيويون فى النص السابق بالقضاء المبرم عليهم حتى يعودوا إلى سابق عهدهم فى التلطف إلى ملك مصر وشعب مصر حتى يسمحوا لهم بمجرد الاستفادة من بعض مياه النيل لتروى ظمأهم وظمأ أنعامهم . ولكى يأمن الملك تماما شر هؤلاء الأعداء فإن عليه أن يعيد بناء الأسوار التى تحمى البلاد من غاراتهم واستفزازاتهم فى المستقبل .

والجدير بالذكر أن هذه إشارة إلى ما كان يسمى فى عهد بناة الأهرام بـ" سور الحاكم " الذى كان أشبه بقلعة قديمة لحماية الدلتا الشرقية الواقعة على التخوم الآسيوية ، وقد بنى قديما لحراسة الطريق من آسيا إلى مصر[١٩٣] . والذى يتنبأ به نفرروهو هنا هو أن الحاكم الجديد سيعيد بناء هذا السور ليصبح كما كان من قبل حاميا لحدود البلاد .

إن الحاكم الأمثل فى نبوءة نفرروهو هو إذن الذى يتحلى بخصائص عدة أهمها القوة بمختلف معانيها وخاصة قوة الشخصية ، والقوة فى مواجهة الأعداء سواء فى الداخل أو فى الخارج ، وهذه

القوة بتجلياتها السياسية والعسكرية تتكامل مع ضرورة تحليه بالأخلاق الفاضلة التقليدية لحكام مصر القديمة ، تلك الأخلاق التى تتمثل فى ضرورة تحقيق الماعت والنظام وحماية الناس من الظلم ودفع الشر والأشرار عنهم . وعلى هذا فليقارن المقارنون والمحللون بين صورة الحاكم الأمثل عند نفرروهو ، وبينها عند كل من ابن خلدون ومكيافيللى وهوبز رغم اختلاف ظروف العصر واختلاف المنطلقات والأهداف .